من قضايا الأنثروبولوجيا المعاصرة : بارث والوظيفية

إدريس سالم الحسن*

* حصل على الدكتوراه من جامعة كونيكيتكت بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠ م .
يعمل بقسم الدراسات الاجتماعية ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض .

الملخص

نحـاول أن نقـدم في هذا البحث واحـداً من أهم علماء الانثـروبولوجيا المعاصرين، وغير المعروفين في العالم العربي، على الـرغم من دراسـاتـه الـواسعة في العالمين العربي والإسلامي. ولتجلية الموقف النظري لبارث كان لا بد من استعراض فهمـه للوظيفيـة، والتي بنى على حطـامهـا بنـاءه النظـري. وأوضح البحث كيف أن بارث يركز على الفرد، لفهم عمليات التفـاعـل الاجتـماعي، في حين أن الوظيفية تركز على مستوى النظم والأنساق. كما أوضح البحث كذلك، أن الاختلافات الأسـاسيـة بين المـوقفـين النظـريـين، تنبـع من اختـلاف وجهـات النظر، حول مسائل كالحقيقة الاجتماعية، وعلاقة الفكر بالواقع، وعلاقة الجزء بالكل، ومفهوم التغير الاجتماعي. وفي نهاية البحث نعرض لبعض الانتقادات التي وجهت إلى بارث لتبيان أوجه بنائه النظري، على الرغم من تقدمه تحليليا على الموقف الوظيفي.

مقدمة

يعتبر العالم النرويجي الجنسية، فردريك بارث (Fredrik Barth) ، من أهم أعلام الأنثروبولوجيا المعاصرة، وذلك من خلال إسهاماته الهامة في مجال البحوث الميدانية والنظرية ـ على وجه الخصوص ـ لهذا العلم. ويحدثنا آدم كيوبر (Adam Kuper) في كتابه القيّم عن تاريخ الانثروبولوجيا في بريطانيا بين (١٩٢٢ ـ ١٩٧٢) بأن بارث من أكثر الأنثروبولجيين حيوية في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، وأنه ما يزال على مدى أكثر من عقد من الزمان، من القوى المؤثرة في دوائر الأنثروبولوجيا البريطانية، وأنه إذا ما قدّر للمرء أن يعيد رسم خارطة النظرية الانثروبولوجية فإن مركز الثقل لاسهام النظرية التبادلية، هي بيرجن (Bergen) في النرويج حيث يدرّس بارث (Kuper, 1975:176-229)

ومن جهة أخرى يكتسب بارث أهمية خاصة لنا في العالمين العربي والإسلامي لأن معظم أبحاثه الميدانية والامبيريقية قد أجراها فيهما. ونذكر على سبيل المثال دراسته للباتان (بين باكستان وأفغانستان) (Barth,1968) ، والفور (في السودان) (Barth,1969) ، والبلوش (في إيران)[1] ، والأكراد (بين إيران والعراق) (Barth,1973) . كما أن آخر كتبه عبارة عن دراسة لمدينة صحار في عمان (Barth,1983) . وتماما، كما صارت مجتمعات النوير Nuer والزاندي والدينكا Azande & Dinka جزءا أساسيا من التراث الميداني والنظري للانثروبولوجيا العالمية، فإن المجتمعات العربية والإسلامية سابقة الذكر، ومن خلال أعمال بارث، قد أصبحت هي أيضا جزءا هاما في مقررات الأنثروبولوجيا في كثير من جامعات العالم. إمّا كمادة اثنوغرافية في حدّ ذاتها، أو نتيجة للاهتمامات النظرية التي ربطها بها بارث، وبخاصة في موقفه المعارض للوظيفية Functionalism ، وتفضيله للتبادلية عوضا عنها.

ومما دفعني لكتابة هذا البحث هو أنه على الرغم من أهمية بارث الأكاديمية، وتأثيره شخصياً ـ ومن خلال تلامذته الاسكندنافيين الكثر ـ على الانثروبولوجيا المعاصرة، فاننا في العالم العربي لا نكاد نعرف عنه شيئا. ولم يقع في يدي إلى الآن، كتاب أو مقال عربي يشير إلى بارث، وفي ذات الوقت لا يكاد يخلو كتاب إنجليزي عن أنثروبولوجيا الشرق الأوسط من نقاش لبعض آرائه، أو عرض لبعض نتائج أبحاثه الميدانية[2].

وقد رأيت أن يكون هذا البحث تعريفاً لجانب واحد فقط من جملة اسهامات بارث النظرية: وهو موقفه من الوظيفية، وتقديمه للتبادلية بديلا عنها[3]. وعليه فلن يتعرض هذا البحث إلى دراسة أو تقييم كل أعمال بارث، أو حتى إسهاماته في دراسة المجتمعات العربية والإسلامية، غير أنه من خلال مناقشة موقف بارث من الوظيفية، ستتضح بعض المعالم الرئيسية لموقفه النظري بشكل عام. كما سيتم استخدام بعض الأمثلة لجزء من أبحاثه الميدانية في العالم العربي والإسلامي. كما أن البحث، من جهة أخرى، لن يهتم بتتبع التطور التاريخي للوظيفية، ولا لمفاهيمها ومرتكزاتها الأساسية بصورة منظمة ومفصلة، وإنما سـ تقتصر النقاش على تلك الأجزاء التي تعين فقط على تبيان موقف بارث النظري.

خلفية الخلاف بين بارث والوظيفية

قبل أن نخوض في نقاش القضايا النظرية، التي يتركز حولها خلاف بارث مع الوظيفيين، لا بد لنا من عرض سريع، يوضح بشكل مختصر، بعض خلفيات هذا الخلاف، ويلقي عليه من الضوء ما يبين بعض خفاياه وظروفه. إن بارث مع كونه ـ كما ذكرنا ـ نرويجي الجنسية، إلا أنه نال تدريبه ـ في مرحلة الماجستير ـ في جامعة شيكاغو في مجالي الانثروبولوجيا والآثار. وحاول أن يقدم لدرجة الدكتوراه ـ حسب النظام النرويجي ـ والذي يتطلب تقديم عمل يكون قابلا للنشر، ويتم تقييمه من لجنة ممتحنة، ولكن لجنة امتحانه كان من ضمنها ايفانز برتشارد Evans-Pritchard، عالم الانثروبولوجيا البريطاني الشهير، والذي اعترض على منح بارث درجة الدكتوراه، مما دعاه إلى الذهاب إلى بريطانيا، والجلوس لهذه الدرجة تحت إشراف ريموند فيرث (Raymond Firth) في جامعة لندن للاقتصاد (London School of Economics) [٤].

وتتضح الصورة أكثر عندما نتذكر بأن الانثروبولوجيا البريطانية كانت في الثلاثينيات والأربعينيات تحت تأثير رادكليف براون (Radcliffe-Brown) في اكسفورد من جهة، ومالينوفسكي (Malinowski) في مدرسة لندن للاقتصاد من جهة أخرى. وقد أعطى هذا الانقسام تيارين متميزين في الانثروبولوجيا البريطانية أحدهما يركز على العمليات الديناميكية، وعلى المستوى الفردي (إلى حد ما إلى المستوى النفسي للفرد: الحاجات والدوافع)، كما هي الحال عند مالينوفسكي، والتيار الآخر يتمثل في اهتمامات رادكليف براون بالبناء الاجتماعي بشكل عام. وقد أخذ هذان التياران شكليهما من خلال طبيعة الرجلين (مالينوفسكي ورادكليف ـ براون) واهتماماتهما، وتحيز تلاميذهما لهما، مما انعكس في طبيعة مواضيع الدراسة وطريقة معالجتها. وقد بقي هذان التياران بصورة أو بأخرى في كمبردج، حيث كان يمثل التيار الأول (المتأثر بمالينوفسكي) تلميذاه فيرث وليتش، ويمثل الثاني قلكمان (Gluckman)، حيث كان أكثر تركيزا على الجوانب البنائية، متأثرا في ذلك بأستاذية رادكليف ـ براون وايفانز برتشارد[٥].

ويتبين لنا من هذا أن الموقف النظري لبارث، والذي سنشرحه لاحقا، له خلفية شخصية، وجذور أكاديمية، ذات بعد تاريخي، يرجع بأصوله إلى تقاليد معروفة في الانثروبولوجيا البريطانية، بما فيها من خلافات في وجهات النظر. وتفسر لنا نفس أسباب خلاف بارث مع الوظيفية، بالشقين الشخصي والأكاديمي، مسألة أخرى سترد لاحقا في المناقشة، وهي تركيزه ـ في هجومه على الوظيفية ـ على صورة واحدة فقط، تتمثل أساسا، في أعمال رادكليف ـ براون وايفانز برتشارد (أقطاب اكسفورد) مع تجاهله للتراث النظري للوظيفية، المتضمن في اسهامات مالينوفسكي نفسه، أو الاسهامات التي تمت على يد تلاميذ رادكليف ـ براون وايفانز برتشارد نفسيهما (كأمثال قلكمان Gluckman وميتشل Mitchell) في مجال الانثروبولوجيا، والاسهامات الضخمة التي قام بها كل من تالكوت بارسونز Parsons وميرتون Merton وغيرهما في النظرية الوظيفية في علم الاجتماع. وبهذا يكون من الواضح أن إطار مناقشة بارث للوظيفية، لا بد أن يضع هذه العوامل في الاعتبار، إذا كان لنا أن نفهمه في بعده التاريخي الصحيح، وفي تقييمه من الناحية النظرية ومدى أهميته أكاديمياً.

نقاط الخلاف بين بارث والوظيفية

تسعى الانثروبولوجيا إلى تقديم صورة ذهنية للمجتمع الإنساني ككل مترابط، يصبح فيه السلوك والفعل الإنساني معنى في الاطار الاجتماعي، وهي بهذا لا تختلف كثيرا عن بقية العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، إلا في المناهج والأدوات المستخدمة في سبيل تلك الغاية. والانثروبولوجيا كعلم لم تظهر وتأخذ شكلها الحالي إلا في القرنين الماضيين (الثامن عشر والتاسع عشر) وبداية القرن العشرين، وفي العوامل الأولى لنمو الانثروبولوجيا كانت الانتشارية والتطورية هما المنهجان السائدان والمستخدمان في ذلك الوقت بزعامة سميث للانتشارية وتايلور في انجلترا ومورقان Morgan للتطورية. إلا أنه في العقود الأولى من هذا القرن وجهت الكثير من الانتقادات للاتجاهين، لعدم مقدرة أي منهما على اثبات حججهما بأدلة قاطعة من جهة، ومن جهة أخرى لتركيزهما على جزئيات من ثقافة المجتمع أو مؤسساته الاجتماعية، وتتبعها منفردة في انتقالها من مجتمع لآخر (في حالة الانتشارية)، أو تشكلها في تطورها من حقبة تاريخية إلى أخرى (في حالة التطورية). وقد كان معظم هذا النقد موجها من قبل الوظيفية، والتي أنهت سيطرة الاتجاهين، وحلت محلهما مترتبعة على عرش الانثروبولوجيا النظري، إلى مطلع الستينات من هذا القرن، لتظهر اتجاهات جديدة تنازع الوظيفية مكانتها[٦].

واختلاف وجهات النظر في علم الانثروبولوجيا تنبع أساسا، كما هو الحال في العلوم الاجتماعية الأخرى، من الاختلاف حول طبيعة الحقيقة الاجتماعية، وطريقة تصورها. فالحقيقة الاجتماعية التي يحاول عالم الانثروبولوجيا إدراكها هي أس الخلاف، إذ أن العلاقات المتداخلة في المجتمع لا يمكن ادراكها مباشرة، لأنها ليست «حقيقة» بقدر ما هي «تصور» نضعه نحن لها. ولكن هذا لا يعني بأنها «وهم» لا وجود لها. فالعلاقات الاجتماعية بين أفراد وأجزاء المجتمع في أي تركيب بنائي، لها «وجود» منفصل عن فكرنا، وغالبا ما يكون هذا الوجود مختلفا عن الطريقة التي يتصوره بها عالم الاجتماع أو الانثروبولوجيا. وما يتفق عليه علماء الانثروبولوجيا والاجتماع هو أن العلاقات الاجتماعية، تقوم على أسس وتنظيم وقواعد معينة، تحدد السلوك الاجتماعي، بحيث لا يصبح عشوائيا. والخلاف ليس حول وجود هذه القواعد وعدمها، بقدر ما هو حول طبيعتها، ومصادرها، وقوتها، وأهميتها. كما أن أسس الخلاف في هذه المسألة راجع إلى طبيعة تحول «الحقيقة» الاجتماعية نفسها من نمط إلى آخر، لأن العلاقات الاجتماعية دائمة التحول من حين لآخر تحت ظروف اجتماعية وتاريخية متغيرة. والسؤال هنا يصبح كيف يمكننا أن نمسك بلحظات التحول تلك، حتى نصل من خلال فهمها إلى فهم ديناميكية المجتمع، وكل اتجاه أو مدرسة لها إجابة مختلفة لهذا السؤال. (Firth: 1972).

ويمكن ترجمة الاختلاف حول طبيعة الحقيقة الاجتماعية إلى ثلاث قضايا يدور حولها ـ ضمن قضايا أخرى ـ الجدل بين علماء الانثروبولوجيا عموما، على اختلاف مشاربهم. وهذه القضايا تتعلق بـ: التعبير الاجتماعي، العلاقة بين السلوك المثالي أو المتوقع بما هو فعلا من سلوك واقعي، وعلاقة الجزء بالكل.

أولا : (١) إن من أهم القضايا التي هي مثار خلاف بين الأنثروبولوجيين على اختلاف وجهات نظرهم تدور حول التغير الاجتماعي . ورغم اتفاقهم على أن التغير الاجتماعي شيء حتمي في كل المجتمعات الإنسانية وفي كل الأزمنة ، إلا أنهم غير متفقين على ما هو المقصود بالتغير ، وأي الأجزاء من تركيبة المجتمع هي التي يجب التركيز عليها لفهم حركته ، وما أسباب التغير ، وما هي مؤشراته ، وكيف يمكن رصده ومعرفة اتجاهاته . فبعض علماء الأنثروبولوجيا يركزون على التغير الذي يحدث في البناء الاجتماعي ككل ، أو بعض الأنظمة المعينة ، كالنظام الاقتصادي ، أو الاجتماعي ، أو السياسي ، وإعطاء أهمية لأحدها دون البقية . وبعضهم قد يركز بصورة أساسية على تغير القيم ، باعتبار أن تحولها هو المؤشر الرئيسي ، لما يمكن اعتباره تغيرا حقيقيا . والبعض الآخر قد ينزل إلى مستوى المؤسسات الاجتماعية ، (كالأسرة مثلا) ، ويعتبر ما يحدث فيها من تحولات دليلا على حدوث التغير . وقد وضع بوتومور بعض الأسئلة التي تعين على تفهم جوانب المشكلة ، وطرق بحثها منهجيا . وهذه الأسئلة هي : ما هو الشيء الذي يتغير؟ وما هو اتجاه التغير؟ وما معدله؟ ولماذا حدث؟ ولماذا كان ممكنا؟ وما هي العوامل الرئيسية في التغير الاجتماعي؟ كما أن باحثين آخرين طرحوا هذه التساؤلات حول طبيعة التغير ومظاهره بصورة أخرى وهي :

(١) ما هو الدافع الأساسي والحافز في علاقات الناس مع الطبيعة ومع بعضهم البعض؟
(٢) أين يقع التغير بشكل جوهري : على النظام الاجتماعي أم على الوظائف أم الأدوار؟ على القيم أم على العلاقات؟ على الجانب المادي أم غير المادي؟ ما الذي يتغير أولا؟
(٣) دور العامل الذاتي ودور العامل الموضوعي؟ وما هي العوامل الأساسية والعوامل الثانوية المسببة للتغير الاجتماعي[٧] .

وقد وضع روبرت بي Robert Bee بعض المعايير التي يمكن على ضوئها مقارنة الاتجاهات المختلفة حول قضية التغير نورد هنا جزءا منها (Bee, 1974:9-26) .

(١) الزمن (الوقت) : فالتغير هو عملية تستغرق زمنا محددا . ولذلك يمكن أن يتغير مفهوم التغير تبعا للمدة الزمنية التي تؤخذ كوحدة للتحليل : فالتغير البطيء قد لا يمكن ملاحظته ، إذا كانت المدة المأخوذة للتحليل قصيرة نسبيا ، وعليه فالوقت نفسه أمر نسبي ، وتقديره يتوقف على موضوع بحث الباحث ، والغرض الذي يريد أن يتوصل إليه : فبحث التغير في الأسرة يأخذ حوالي أربعة أجيال في حين أن التغير السياسي في نظام برلماني مثلا يعتمد على عدد السنين التي تجري فيها الانتخابات والاختيار للبرلمان .
(٢) درجة وحجم التغير : فالباحث الذي يدرس التغير الصناعي في اليابان يختلف عن ذلك الذي يبحث في التغير الطارىء في زخرفة الخزف مثلا . كما يجب ملاحظة أن ما يمكن اعتباره تغيرا بسيطا قد يتراكم ويأخذ حجما كبيرا ويؤدي إلى تغير نوعي جذري .

(٣) نطاق التغير وحدوده: وهذا العنصر يختص بوحدة التغير المراد دراستها، ومدى تطابق حجمها مع البقعة الجغرافية التي تحتلها، فالقبيلة مثلا يجب تحديدها بدقة، ومعرفة حدود الرقعة التي تنتشر فيها.

(٤) مستوى التجريد عند الباحث: ليست هناك مستويات للتجريد يتفق عليها الباحثون، وهي قد تمتد من مستوى الفرد إلى مستوى يشمل نطاق العالم كله، مرورا بالأسرة، وجماعة الجيرة، ثم المدينة والمقاطعة والدولة والأمة... إلخ. وعلى الباحث أن يحدد أي مستوى من هذه المستويات سيقف عنده لدراسة وتتبع التغير الاجتماعي، وذلك لأن كل مستوى يتطلب أسئلة معينة وأساليب تحليل مختلفة. ولكن حتى الاتفاق على مستوى تحليلي معين بين اتجاهين لا يعني بالضرورة اتفاقهما في التحليل.

ثانيا: والقضية الثانية مثار الخلاف تدور حول العلاقة بين السلوك المثالي والسلوك الواقعي، أو بين ما هو مفترض أن يقوم به أفراد المجتمع من سلوك، مقارنا بما يقومون به في دنيا الواقع، وبعضهم قد يطلق على هذه القضية العلاقة بين الفكر والواقع، ويطلق عليها آخرون العلاقة بين الثقافة والمجتمع، أو العلاقة بين الفكر والفعل.. الخ... وهنا أيضا نجد أن الجميع متفقون على أن كل فعل إنساني هو نتيجة لفكرة ـ أو مجموعة من الافكار ـ مسبقة، يؤثر في، ويؤدي إلى فكر جديد. بيد أن المشكل عندهم هو تحديد طبيعة هذه العلاقة على وجه الدقة، والتركيز على أي من الاثنين، هو المؤثر، وأيهما المتأثر، إذا كانت العلاقة بينهما سببية. والمواقف الكلاسيكية في هذا المجال يمكن التمثيل لها بالموقف الماركسي مثلا، والذي يدعو إلى اعتبار الفكر إلى حد كبير تابعاً للفعل الاجتماعي في شكله الاقتصادي على وجه الخصوص، ويتلخص هذا الموقف في المقولة الشهيرة عن علاقة البناء التحتي (الاقتصادي) Infra-Structure، وسيطرته وتشكيله للبناء الفوقي (الفكر بأشكاله المتعددة) Super-Structure، ويمثل موقف فيبر في معالجته لنشأة الرأسمالية، ودور الفكر البروتستانتي فيها، تركيزا على أهمية الأفكار في احداث الفعل، وخلق الواقع الاجتماعي [٨].

ثالثا: والقضية الثالثة والأخيرة ـ لغرض البحث فقط ـ هي علاقة الجزء بالكل. وليس هناك انثروبولوجي واحد لا يرى المجتمع مكونا من أجزاء، (أيا كان تصوره لها ولمعانيها) تتداخل وتتفاعل مع بعضها البعض في كل شامل. ولكن الخلاف يدور حول طبيعة هذه الأجزاء، وهل هي أفراد، أم نظم، أم عمليات اجتماعية... إلخ... وعلاقتها بالكل (سواء أكان ذلك ثقافة شاملة أم مجتمعاً محلياً ام تركيباً اجتماعياً، ام مجموعة عمليات اجتماعية.... إلخ). ويدخل في هذا الخلاف، حول الطريقة التي يمكن بها الانتقال تحليليا بين الخاص والعام، وكيف يمكن ان نربط بينهما، إذ أن الجزء (أو الخاص)، وهو قد يكون الفرد، أو موقفاً اجتماعياً أو نسقاً اجتماعياً معيناً.... إلخ... يختلف تركيبا وتحليلا عن النظام الشمولي (العام). ولكل موقف نظري رأيه حول أهمية التركيز على الجزء أو الكل، وأهمية العلاقة بينهما، وكيف تتحول العمليات الاجتماعية من مستوى الجزء إلى الكل أو العكس[٩].

وهـذه القضـايـا الثـلاث التي ذكـرناها باقتضاب شديد، ليست هي كل ما تختلف حوله الاتجاهات المتعددة في الانثروبولوجيا، ولكنها ـ في اعتقادنا ـ من أهم ما يمكن ذكره من المصادر الأسـاسيـة للخـلاف. وجميعهـا تنبـع من أصـل واحـد، وهو الاختلاف في النظرة إلى الحقيقة الاجتماعية بشكل عام كما ذكرنا من قبل.

الموقف الوظيفي

كانت الـوظيفيـة ـ ومـا زالت إلى حد ما ـ تشغـل موقفـا مؤثـرا في خارطـة علمي الاجتـماع والانثـروبـولـوجيا، ولا يمكن لأي دارس لأي من العلمين تجاهل دور الوظيفية، ومواقفها النظرية، إذا كان له أن يحدد بوضوح موقفه النظري. وهذا ما فعله بارث، غير أنه يحسن بنا في البداية إعطاء صورة مختصرة لآراء الوظيفية في النقاط التي أوردناها في الجزء السابق.

يتفق الـوظيفيـون ـ على اختـلاف وجهـات نظـرهم ـ على تصـور المجتمـع كتركيب متسـانـد متكامل، مكون من وحدات اجتماعية، أو نظم كالنظام القرابي والاقتصادي والسياسي... إلخ... تعمل في تناسق وانتظام بدون وجود تناقضات أساسية تبقى لزمن طويل. وقد عبر أهم أعمدة التنظير في الـوظيفيـة ـ رادكليف براون ـ عن مصطلح البنـاء الاجتـماعي هكـذا: البنـاء هو الأجزاء أو المكونات المنظمة والمتناسقة، والتي تتكون وحداتها من الأشخاص، الذين هم أساس تلك المكونات.

وهـؤلاء الأشخـاص ينتظمـون في شبكـات اجتماعية من العلاقات، التي بدورها تكوّن الأنساق والنظم التي يسير وفقها نظام المجتمع ككل. أي أن كل المستويات للبناء الاجتماعي ليست عشوائية في تفـاعلهـا، وإنـما تحكمهـا سنن وقـواعـد محددة، ولـذلـك تصبـح هي ذات القـواعـد التي تحدد سلوك الأشخاص كأفراد.

والفـرق بين البنـاء (Structure) والنظـام (Institution) يمكن شرحـه بالمثـال التـالي: «بنـاء» الجيـوش العصـرية الحديثة يتكون من فيالق وكتائب... إلخ... ولكنها «نظاما» ترتب أفرادها داخليا في رتب عسكرية... لواء، عميد، عقيد..... إلخ.

ومهمـة العنـاصـر الأسـاسية ـ الأشخاص والنظم ـ هي المحافظة على استمرارية وتماسك البناء الاجتماعي ـ وبمعنى آخر، أو بلغة الوظيفيين ـ أن «وظيفة» الأجزاء هي خلق تناسق وتوازن يحافظ على الكيـان الشـامل للبناء الكلي للمجتمع، ولكن استمرارية البناء لا تتوقف بالضرورة على تغيير الأجزاء في حد ذاتها، إذ لن يغير غياب الأجزاء أو تبدلها (طالما كان ذلك جزئيا) في تلك الاستمرارية، وهذا ما يسميـه رادكليف ـ براون بالاستمـرارية البنائية "Structural Continuity". والمجتمع يمكن وصفه بأنـه وحـدة وظيفيـة يتألف منـه كل أجـزاء البنـاء، والتي تعمل متناسقة لتحقيق الاتسّاق الداخلي[١٠]. وبمعنى آخـر لا يدخـل الـوظيفيـون في حسـابـاتهم وجـود تنـاقضـات أو صراعـات لا يمكن حلها، أو تنظيمهـا، أو معـالجتهـا. ولكن هذا لا يمنـع أن يمر المجتمع بفترات مؤقتة من عدم الاتساق والتوازن

(نتيجة لتلك التناقضات)، غير أن المجتمع ـ في آخر الأمر ـ سيكون قادرا على إعادة التوازن المفقود. وتستمر مسيرته مرة اخرى. والحالة الأخيرة يطلق عليها الوظيفيون مصطلح «التفكك الوظيفي». وهي مؤقتة كما ذكرنا[١١].

ونتيجة لاهتمامات الوظيفيين السابق ذكرها، فإن محور نظرتهم عن المجتمع، يدور حول التركيز على تركيبة المورفولوجي. وبالتالي فإن تساؤلاتهم هي من طبيعة: ما هي أنواع البناءات الاجتماعية الموجودة؟ وما أوجه التشابه والاختلاف بينها؟ وكيف، ووفق أي معايير يمكن ان نصنفها؟ (Barth,1966:1-3).

أما فيما يخص علاقة الجزء بالكل فإن الوظيفية تضعها في إطار الأشخاص في علاقتهم بالبناء الكلي، وفي هذه الحالة فإن الأفراد كأفراد لا يشكلون أية أهمية تحليلية. والفرق بين الفرد والشخص هو أن الشخص لا ينظر إليه بحسبان أنه فلان (لذاته أو شخصيته أو سلوكه كشيء يختلف من فرد لآخر) وإنما ينظر له في وضعيته الاجتماعية: كشاغل مكانة اجتماعية. فالسؤال عن العلاقة بين الفرد (كفرد) والمجتمع سؤال لا معنى له في الوظيفية كما يمثلها رادكليف ـ براون (Bee, 1974:4).

وفي علاقة المثالي بالواقع نجد ـ في تصور الوظيفيين ـ فرقا كبيرا بينهما. فكأنما السلوك والتفاعل الاجتماعي، في حالته المثالية ـ أي ما يشعر الأشخاص أنه من المفروض عمله، وبين ما يحدث فعلا من واقع معاش ـ أمران منفصلان إلى حدّ ما، والغلبة فيهما للمثالي، والذي يحدد نمط السلوك والتفاعل بما يقرره من واجبات وحقوق، في شكل قيم لأطراف العلاقات المختلفة (سواء أكانوا أشخاصا أم جماعات). وبمعنى آخر فإن الواقع خاضع تماما لمستوى أعلى من الثقافة بمحدداتها القيمية. ويحاول الأشخاص ـ قدر طاقتهم ـ جعل سلوكهم الواقعي يرتفع إلى ما هو مفترض ومتوقع منهم، حسب ثقافة مجتمعهم، أو بكلمات أخرى: إن الواقع هو محاولة لتجسيد المثالي.

إن التصور السابق هو إسهام رادكليف ـ براون بصفة أساسية، في نشأة الوظيفية البريطانية بشكل عام، ولكنه أيضا يمثل تيار اكسفورد على وجه الخصوص، مقارنا بالتيار الذي كان يمثله مالينوفسكي في جامعة لندن للاقتصاد كما ذكرنا.

بارث والوظيفية[١٢]

نستعرض في هذا الجزء فهم بارث لمعطيات الوظيفية، ومن ثم يمكننا أن نوضح بشكل أفضل مواقفه النظرية اللاحقة. ففي مقالة عن «نماذج التنظيم الاجتماعي» ينقل بارث قطعة مطولة عن رادكليف ـ براون: «ان الواقع المعاش يمكن أن يدركه الانثروبولوجي من خلال الملاحظة، والمقارنة، والتصنيف» ولكن هذا الواقع ليس مجرد أي شيء، إنه «عملية» مستمرة من التفاعل الاجتماعي... والعملية تتكون من مجموعة هائلة ومتنوعة من الأفعال والتفاعلات لبني البشر، كأفراد أو

كمجموعات . ووراء كل هذا الخضم من التنوع ، هناك انتظام واطراد يمكن كشفه ، والتعبير عنه بمقولات ، ووصفه في عموميات هي خصائص المجتمع المختار (Barth,1966:1) .

وفي هذا الخصوص يقول بارث بأن نظرته لواقع المجتمع تختلف عن الوظيفية ، في أنه ليس مهتما بإعطاء وصف للاطراد والانتظام ، بقدر ما هو مهتم بكيف ينشأ ويحدث هذا الانتظام في المقام الأول (Barth, 1966: 1) . وعليه يعتقد بارث بأن من أهم أوجه قصور الوظيفية لتصور الواقع ، نابع من عدم اهتمامها بالطريقة التي تتولد بها أنماط ونماذج جماعية للسلوك ، تأخذ شكلها النهائي في المجتمع ، من تفاعلات مفردة ومتفرقة . ولتحقيق هذا الهدف استنبط بارث تركيبا نظريا سمّاه «الأنماط أو النماذج المولّدة Generative Models» (Barth, 1966: 3) . ويقول بارث ، إن النمط أو النموذج العام في أبسط صوره يمكن تصوره على أنه مجموعة من الناس ، يمارسون اختيارا بين بدائل مختلفة ، يمكن أن يقوموا بها مدفوعين بحوافز معينة ، ولكن تحت ظل كوابح مجتمعية . والقاعدة التي تكمن في هذا التصور ، هي أن للناس مقدرة على تقييم الأشياء والأمور ، وأنهم بطبعهم ـ كبشر ـ لا بد لهم من المشاركة الاجتماعية ، أي بمعنى آخر ، فإن هذا التصور مبني على فكرة أن الناس تدفعهم الرغبة في سبيل تحقيق مصالحهم إلى التعامل مع الآخرين . وهذه الرغبة يزيدها وجود حوافز متنوعة ، مادية وغير مادية ، وتكبحها ضوابط مجتمعية (Barth, 1966:25) . وبذا يصير اهتمام بارث وتساؤله الرئيس هو : ما هي الضوابط والكوابح من جهة ، والحوافز من جهة أخرى ، التي توفق بين خيارات الأفراد المختلفين ؟ ومن هذا المنطلق يحكم بارث على التصور الوظيفي بأنه قاصر ، لأنه يفترض بأن الكوابح (أو القيود) على الأفعال هي كوابح قيمية (أخلاقية) ، وبالتالي يكون التركيب البنائي في أساسه قائما على أحكام أخلاقية ، تتحكم في طبيعة وتوجه مسار الأفعال الاجتماعية ، وبالتالي تصبغ كل التفاعلات الاجتماعية بهذه الصفة الأخلاقية (Barth, 1966: 1) .

ويقارن بارث بين نموذجه (تولد النماذج) ، والوظيفي مبينا أن الأول هو لتفسير الأشكال الاجتماعية . ويكفي أن نوضح العمليات التي ولدت ذلك الشكل الذي ندرسه ، وأن الأشكال النهائية هي في الواقع نتيجة للتفاعل بين ممثلين تشدهم أهدافهم والحوافز من جهة ،وتضع الكوابح الاجتماعية عليهم قيودا لمدى تصرفاتهم من جهة أخرى . فالنتيجة النهائية للشكل إذن هي معادلة بين الخيارات والأهداف والكوابح . وإذا تكررت هذه المسألة في أكثر من موقف فإن الحياة الاجتماعية تأخذ صورتها المألوفة بتأكيد أنماط سلوك وتصرفات معهودة ومضادة . وهذا بدوره يقود إلى انتظام الحياة الاجتماعية . وبذلك يعتقد بارث (خلافا للتصور الوظيفي) بأن تصوره لا يحدد شكلا واحدا لما يمكن أن ينتج أو يتولد من التفاعلات المختلفة في نطاق هذه الخطوط العريضة من الأهداف والحوافز والكوابح . فلا نضمن بالضرورة أن تفاعلا معينا سيؤدي إلى الشكل أ وليس ب . فكلاهما ممكن ، ولن نستطيع تحديد أي منهما إلا بعد الدراسة الفعلية لطبيعة التفاعل نفسه ، والوسط الاجتماعي الذي يحدث فيه . ولكن هذا لا يمنع ، بل يجب ، أن يكون للمحلل ، أو عالم الاجتماع ، تصوره المنطقي ، وهو البناء النظري ، متوقعا ما يمكن أن يحدث من الناحية النظرية . ثم عليه بعد ذلك المطابقة مع الواقع الفعلي (الحياة المعاشة) . ويتم تعديل أو إعادة النظر في البناء النظري بناء على نتيجة المقارنة بينهما (المقدمة : Barth, 1966) .

أما فيما يخص مشكلة علاقة الجزء بالكل ، وخاصة فيما يتعلق بالفرد والمجتمع ، فإن بارث لا يأخذ الأفراد كأفراد ، ولا كأشخاص ، كما تفعل وظيفية رادكليف ـ براون ، وإنما يعتبرهم ممثلين أو فاعلين . وبذلك لا يركز على المستوى للأفراد (كأحاد) ، ولا يعتبرهم ـ كالوظيفية ـ أشخاصا يحتلون مكانات اجتماعية ، ولهم وظائف محددة بالإطار القيمي للمجتمع ، وإنما ـ تماما ـ كالممثلين الذين لهم أدوار يلعبونها في تفاعل مع آخرين .

وبنظرة بارث هذه فإن المثالي ليس هو المحدد للواقع الامبيريقي كلية ، وإنما الواقع الامبيريقي (والحياة المعاشة) هي التي تولد الأنماط المختلفة ، التي يتشكل منها المثال في النهاية ، عبر سلسلة من التفاعلات ، من احتكاك الناس كممثلين ، وتعاملهم مع بعض في ظل نظام ثقافي معين . أي بمعنى آخر ، إن موقف بارث هو عكس الوظيفية تماما في هذه النقطة (Bee, 1974 : 196-197) .

وفي حين أن فكرة التغيير الاجتماعي لم تركز عليها الوظيفية التقليدية بشكل كبير كما وضحناه ؛ نتيجة لمنهجها الرامي إلى تصور المجتمع في حالة مستمرة من التوازن ، نجد أن نظرة بارث تؤكد مبدأ التغير ، كمرتكز يقوم عليه كل تحليله الاجتماعي . هذا فيما يتعلق بالتغير العادي ، أما التغير الكبير الذي يشمل قطاعات كبيرة من المجتمع أو كله ، والذي لا يدخل أصلا في الإطار النظري للوظيفية ، فإن منظور بارث يستطيع أن يتوقعه ، وأن يفسره ضمن معطيات إطاره النظري ، من خلال استخدام مفاهيم «كالسمسار» أو المستثمر المغامر (المقدمة : Barth, 1967) .

ولتوضيح فكرة بارث عن النوعين من التغير نرجع إلى ما ذكرناه سابقا ، من أن التفاعل الاجتماعي بين الممثلين ، يدخلهم في مواقف تصلح كلها كوسائل لتحقيق الهدف ، ولكن ليس بذات المستوى من النجاح والكفاءة . وعليه فإن الممثل أو الفاعل لا بد أن يتخذ قرارا يبين أي تلك البدائل أصح من غيرها (يعني يمكن أن تحقق له عائدا ونجاحا كبيرا ، مقابل أقل خسارة أو تكلفة ممكنة) . ولكن اتخاذ القرار لا يحدث في فراغ : فهناك ما يقوم به الممثلون الآخرون من أفعال ، وطبيعة العمل الذي يود الممثل أن يحققه ، والظروف الاجتماعية والطبيعية ، وكمية الجائزة أو العائد الذي سيرجع لمتخذ القرار في حالة النجاح ، أو التكلفة الاجتماعية والمادية التي ستحيق به في حالة الفشل . . . إلخ . . . فكل هذه مسائل لا بد من حسابها قبل أن يتخذ الفاعل قراره ، أو بمعنى آخر لا بد له عند اتخاذ القرار من حساب ومعادلة العائدات والحوافز والكوابح ، بكل أنواعها وأبعادها . بيد أن نظرة المتفاعلين وتقييمهم لكل هذه العناصر ، حتى في الموقف الاجتماعي الواحد ، تختلف اختلافا بينا . ومبعث ذلك أن كلاً من الفاعلين له تجاربه الشخصية ، وخبرته ، وذكاؤه ، وأسبقياته المختلفة (فما هو في غاية الأهمية عنده قد يكون غير ذي أهمية عند غيره) . ومن مجمل هذه الاختلافات تنتج أنماط متباينة من السلوك والتصرفات . إذن فالتغير الاجتماعي البسيط والعادي ، ناجم من اختلافات وجهات النظر ، في تقييم الأهداف والحوافز والكوابح والبديل ، وأهمية النجاح ومقداره ، والخوف من الفشل وتحمل الخسارة (Barth, 1967: 25) .

أما التغير الشامل أو الكبير ، والذي يعم قطاعات كبيرة من المجتمع أو كله ، فإنه يحدث

بطـريقـة أخـرى . وأهم عنـاصره هما السمسار والمستثمر المغامر . والفرق بين الاثنين أن السمسار ، لا يحاول استخدام استراتيجيات جديدة ، أو إمكانات لم يسبق استعمالها ، وإنما يحاول ـ قدر جهده ـ أن يوظف الوسائل المألوفة ، والامكانات المعروفة ، بطريقة جديدة بعض الشيء ، كأن يكون الشيء (أ) معروفا للناس أنه يصلح من خلال الوسيلة (ب) لتحقيق الهدف (جـ) ، فيأتي السمسار ليستخدم (أ) بالوسيلة (با) ليحقق الهدف (جا) حيث أن با وجا هما نفس ب و جـ ولكنهما معدلتان بعض الشيء .

أمـا المستثمـر المغـامـر فيستخدم إمكانات جديدة ، ووسائل جديدة ، لتحقيق أهداف قد تكون مألـوفـة أو مقبـولة لأول مرة ، من قبل عامة الناس في المجتمع . وفي هذه الحالة فإن المخاطرة للمستثمر تكـون جدّ عاليـة ، ولكن في حالـة النجـاح فمن المتـوقع أيضا أن يكون العائد ضخماً . ولما كان معظم النـاس بطبعهم يميلون إلى تكـرار حالات النجـاح ، فإنهم في هذه الحـالـة سيحـاولون تقليد المستثمر المغـامـر في استخـدامـه للإمكـانات الجديدة ، والوسائل الجديدة ، والأهداف الجديدة . وقد يكون في ذلك ـ أيضا ـ تخطٍ لحاجز العادات والتقاليد الاجتماعية المعروفة . ونجاح المستثمر المغامر يعني لمن يتبعونه أو يقلدونـه أنهم سيحققـون نفس النتيجة من العائد الضخم وتجنب الخسائر الكبيرة ، وأن المجتمع لن يعـترض بطـريقـة تؤثر تماما على الوضع الاجتماعي لمتخذ القرار . وعندما يتكرر التقليد بصورة واسعة يكـون المجتمـع ـ في الـواقع ـ قد انتقل إلى وضع جديد . وإذا أخذنا في الاعتبار أن الواقع الامبيريقي ليس بمثـل هذه البسـاطـة ، وأنـه أكثـر تعقيـدا ، فإن التقليـد في أكثر من قطاع ، لإمكانات ووسائل وأهداف جديدة ، يجعلنا ندرك بأن المجتمع سوف يتغير إلى حد كبير (Barth, 1967: 22-27) .

ويؤكد بارث أهمية ملاحظة ثلاث نقاط أساسية عند محاولة فهم التغير الاجتماعي من الناحية النظرية :

أولا : التدقيق في الحالات الامبيريقية التي يتم فيها حدوث التغير .

ثانيا : وبما أن التغير لا يكون فجائيا ، فلا بد لنا من رصد ومتابعة سير تتابع عملية التغير من مرحلة إلى أخرى وتسجيلها بدقة .

ثالثا : وأخـيرا ، أهميـة دراسـة «تأسيس» التغير (institulionulization of change) والذي يصبح بموجبه التغير شيئا مألوفا ومعترفا به من قبل المجتمع (Barth, 1967 : 23) . ولتوضيح هذه النقطـة نعطي مثـالا استخـدمـه بارث ، وهـو مثـال الـوحـدات الأسـريـة لمجمـوعة الفور (في السودان) ، والتي تحولت من الزراعة إلى الرعي[١٣] .

يسكن الفـور منطقـة غرب السودان ، على الحدود السودانية التشادية ، حيث تشاركهم السكن مجموعات كثيرة من القبائل الأخرى ، كالمساليت ، والزغاوة ، والتنجر وغيرهم . ويعتمد معظم الفور على الزراعة المطرية كمصدر أساسي لحياتهم واقتصادهم المعيشي . وأهم ما يزرعونه هو الدخن وقليل من الخضروات في أراض زراعية صغيرة الحجم، لا يتعدى عائدها احتياجاتهم الضرورية .

وما يميز الفور عن غيرهم من المجتمعات الزراعية الأخرى أن الأسرة عندهم لا تشكل وحدة انتاج ولا استهلاك ، فالزوج والزوجة يعمل كل منهما منفصلا في مزرعته ، ويخزن محصوله ويستهلكه منفردا . ولكن على المرأة عمل الطعام ، وهو عصيدة من القمح ومشروب المريسة . وعلى الرجل فقط أن يمد الزوجة ببعض النقود ، حتى تشتري بعض احتياجاتها من السلع الضرورية (كالملابس) . أما فيما عدا ذلك فكل منهما له نقوده الخاصة التي تعود إليه من بيع فائض المحصول ، ويتصرف فيها كما يحلو له . أي بمعنى آخر ، وحسب انموذج بارث ، فإن اتخاذ القرارات فيما يخص انتاج واستهلاك الزوجين مسألة فردية ، يحدد كل منهما كيف يستغل الامكانات الأساسية المتوفرة ، بالطريقة التي تعود عليه بأكبر عائد وأقل خسارة . والامكانات المتاحة في هذه الحالة هي الوقت الذي يبذل في الانتاج (الزراعة) ، والطعام (الدخن) ، و (النقود) .

غير أن بعض الأسر من الفور تحولت من الزراعة إلى الرعي ، مما يعني أن تغيرا قد حدث . وهذا التغير أدى بدوره (وأيضا كنتيجة) للتغير الذي طرأ على طريقة توزيع واستخدام إمكانات الوقت والطعام والنقود . فمع هذا التغير بدأ الزوجان ، كوحدة رعوية ، يوحدان هذه الإمكانات ، ويعملان معا ، ويضعان نقودهما سويا ، ليصرفا منها ، بعد الاتفاق بينهما ، أو بمعنى آخر أصبحا وحدة انتاجية واستهلاكية ، بعد ما تحولا إلى الرعي من الزراعة . ويزعم بارث بأن هذا التغير ـ في الواقع ـ نتيجة لمجموعة قرارات عقلانية اتخذها البعض الذي تحول إلى الرعي ، لأن مصلحتهم قد اقتضت أن يوحد الزوجان جهدهما بدلا من اتخاذ القرارات منفردين .

وما فعله بارث في هذا المثال هو التركيز على مجموعة من الفاعلين (أو الممثلين) ، ومعرفة الطريقة التي تم بها اتخاذ قراراتهم فيما يخص توزيع الوقت ، والطعام والنقود ، ثم محاولة تتبع الأنماط التي برزت من مجموع هذه القرارات إلى أن أصبحت مؤسسة يعترف بها المجتمع ، وتم بذلك التحول الكامل من الزراعة إلى الرعي ، وبالتالي ظهور شكل جديد للتنظيم الاجتماعي .

مناقشة انموذج بارث(١٤)

نناقش في هذا الجزء عن أنموذج بارث نقطتين : النقطة الأولى تتعلق برؤيته للوظيفية وانتقاده لها لنعرف إلى أي مدى هو محق فيما ذهب إليه ، والنقطة الثانية تتعلق بالأصول التي استمد منها بارث أنموذجه والمناقشات والانتقادات الموجهة إليه حتى نصل إلى تقييم واقعي لموقف بارث النظري .

إن الوظيفية التي يناطحها بارث قد تخطاها الزمن كثيرا . فأنموذجه كما ذكرنا ، مبني أساسا على الصورة التي كونها رادكليف ـ براون في الأربعينيات ، معارضا من الناحية النظرية وظيفية مالينوفسكي ، والتي لا ترتكز بشكل جوهري على البناء في حد ذاته ، وإنما تنظر في طبيعة الإنسان ، والكيفية التي بها تحدث المواءمة بين أجزاء الثقافة المختلفة ، لتلبي احتياجات الإنسان البيولوجية . وبذلك كان اهتمام مالينوفسكي منصبا على ما يجري في الواقع المعاش ، من خلال متابعة الفرد في سلوكه ، وتصرفاته ، وحساباته ، لتحقيق هذه المواءمة (Kuper, 1975 : 39-44) . ولكن قد يكون

لبارث بعض العذر في ذلك ، إذ أنه قد نال تدريبه في مرحلة الدكتوراه في انجلترا تحت ظل الوظيفية البريطانية . وحتى في الماجستير ، في شيكاغو ، كان تأثير رادكليف براون في الانثروبولجيا هناك واضحا . كما أن رادكليف ـ براون ، وحتى نهاية الخمسينيات ، ظل ـ حتى بعد موته ـ قابضا على زمام الموقف النظري إلى حد كبير . كما أن وظيفيته ، والتي يعتبر ايفانز ـ برتشارد ـ على وجه من الوجوه ـ امتدادا لها ، استمرت قوية نافذة إلى حين وفاة ايفانز ـ برتشارد في عام ١٩٧٣ م . وهكذا فإن بارث كان في الواقع يهاجم هذا التقليد العريق ، ولكن من داخله ، ولم يرض بغير الهجوم على مؤسسها شخصيا ، وليس فقط على تلاميذه ، أو فروعها الجانبية .

غير أن هذا الموقف ضد الوظيفية ،في حدته وصلابته وجذريته ، قد كشف جانب الضعف فيه ، لعدة أسباب من أهمها ، أن معظم الانتقادات التي وجهها بارث إليها قد تمت معالجتها أو تلافيها بصورة أو بأخرى في الإسهامات اللاحقة ، سواء من قبل تلاميذ رادكليف ـ براون نفسه في مجال الانثروبولوجيا ، أو في مجال علم الاجتماع . فعلى سبيل المثال ، لم يتعرض بارث ـ إطلاقا ـ إلى محاولات فلكمان (تلميذ رادكليف ـ براون) ومن شايعوه فيما عرف فيما بعد «بمدرسة مانشستر» Manchester School ، والتي كان من أبرز اهتماماتها ، معالجة أنواع وأشكال الصراع داخل البناء الاجتماعي ، وكيفية احتوائه[١٥] . وقد قدمت هذه المدرسة حلا لمشكلة التغير الاجتماعي من خلال ما يعرف بتحليل الموقف . ومع أنه من الصحيح أن مشكلة التغير الشامل ما زالت في ذلك الوقت ، وحتى الآن ، أحد المشكلات الرئيسية التي لم تستطع الوظيفية معالجتها ، إلا أن «تحليل الموقف» يفسر التغير (ولو بصورة جزئية) بطريقة أكثر ديناميكية وواقعية من وظيفية رادكليف ـ براون أو ايفانز ـ برتشارد .

كما أن إسهامات بارسونز في الوظيفية في علم الاجتماع جهد مقدر لمعالجة أوجه قصورها ، وخاصة فيما يتعلق بالربط بين الجزء والكل ، وعلاقة المثالي بالواقعي ، من خلال نظريته حول الفعل الاجتماعي متضمنة في نظرية النسق . فمع أن بارسونز قد احتفظ بالمقولة الوظيفية ، التي تقول بتكون المجتمع (الكل) من أجزاء ووحدات متكاملة ومتساندة إلا أنه قد عدّل فيها ، وجعلها أكثر تطورا . فهو يقول بأن «النسق الاجتماعي» عبارة عن مجموعة كبيرة من الفاعلين ، الذين تقوم بينهم علاقات تفاعل اجتماعي في موقف معين ، قد يتخذ مظهرا فيزيقيا أو بيئيا ، ويتجهون نحو تحقيق الاشباع الأمثل لحاجاتهم ، كما تتخذ علاقاتهم الاجتماعية عن طريق بناء ثقافي مميز ومجموعة من الرموز المشتركة .[١٦]

ويتميز النسق الاجتماعي بثلاث خواص أساسية :

(١) أن النسق الاجتماعي يتألف من أجزاء يعتمد بعضها على البعض الآخر في تبادل .
(٢) أن الأجزاء أو العناصر المكونة للنسق هي أقرب إلى الاستقرار والتكامل ، وبذلك يدعم النسق نفسه ذاتيا .
(٣) أن النسق الاجتماعي يتغير بفعل ديناميات داخلية أو عوامل خارجية[١٧] .

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن بارسونز قد طرح جانبا فكرة البناء الاجتماعي واستعاض عنها بفكرة النسق عموما ، وجعل النسق الاجتماعي ومحوره الفعل الاجتماعي أساس وظيفيته . ولكنه في ذات

الـوقت جعـل فكـرة النسق أداة تحليليـة تصلح لجميـع المستويات من مستوى التفاعل الفردي (مستوى الدور والمكانة الاجتماعية) ، إلى مستوى الإنسان الاقتصادي والسياسي ، إلى مستوى المجتمع ككل كنسق ، وبذلك يمكن دراسة كل نسق لوحده في علاقاته وتفاعلاته الداخلية ، وفي علاقته الأخرى مع الإنسان من خلال العمليات التالية :

التكيف ، تحقيق الهدف ، التكامل والمحافظة على النمط[١٨] .

وأما بخصوص العلاقة بين المثالي والواقعي فقد ميز بارسونز بين ثلاثة أنواع من الأفكار في علاقتها بالواقع وهي :

الأفكـار المتصلة بالـوجـود الـواقعي ، وهذه متصلة بالقيم البشرية والتجربة الإنسانية ، ومرتبطة بالظواهر الواقعية . وتقاس مدى ملاءمتها بكفاءة الشخص (الانجاز) ، وتقدير الموقف الذي تتم فيه ، والأفكـار المعيـاريـة وهي ترتبـط بالمبـادىء والقواعد التي تحدد السلوك في ضوء المعايير والقيم التي يقرها المجتمع ؛ وأخيرا الأفكار الخيالية وتضم التصورات المتعلقة بالوجود المستقبلي والنموذجي والمثالي ، ولا تتصل ببرنامج معين للفعل[١٩] .

فيـما تبقى من هذا الجـزء نعـرض لجذور تبـادليـة بارث ، ونحـاول وضعهـا في مكانها من خارطة الانثـروبـولـوجيـا وعلم الاجتـماع ، لأنها جزء لا يتجزأ من تاريخهما وتياراتهما وانقساماتهما . وتركيز بارث على الأفـراد مقـابـل المجتمـع أو الأنساق ليس أمرا جديدا كل الجدة ، وإنما ، بمعنى من المعاني ، هو متـابعـة لأحـد تقليـدين رئيسيين في هذين العلمين : أحد التيارين يركز على الأفراد وأنماط سلوكهم ، كمدخل أساسي لفهم طبيعة المجتمع وديناميكيته ، بينما يعمد الثاني إلى التركيز على وحدات مجتمعية كبرى (البنـاء الاجتـماعي ، الأنسـاق الاجتـماعيـة المختلفة ، الثقافة . . إلخ) . ويمثل جذور الاتجاه الأول الفيلسوف والمفكر الانجليزي توماس هوبز Thomas Hobbs في القرن السابع عشر ، وتعمقت أكثـر في التجـريبيـة الإنجليـزيـة عند بنتام Bentham ومل Mill وغيرهم . ويذهب هذا الاتجاه إلى أن محددات السلوك والأفعال هي ما يثيره فينا الألم واللذة (وهذه الفكرة بصورة فجة ترجع إلى الفيلسوف الاغريقي أبيقور) . ويمكن تلخيص هذا الموقف في ثلاثة مبادىء :

أولا ان البشـر يسعـون بالضرورة لتحقيق مصالحهم ، وبذلك تكون المصلحة هي غاية السلوك الفردي ، وأن الفرد هو الحكم على المصلحة وأهميتها . **وثانيا** ان الفرد في سبيل تحقيق مصلحته الذاتية يسعى لجلب أكـبر قدر من اللذة مع تجنبـه للألم ، ويتم الحكم على السلوك بالنظـر إلى النتـائـج التي حققهـا في هذا السبيـل ، ومن ثم تكـون نتيجـة السلوك وليست نيتـه أو هدفـه ، هي أساس تقييمه . وأخيرا إن الإنسان في سعيه لتحقيق اللّذة وتجنب الألم يقوم بحسابات عقلانية على ضوء بعض المعايير التي يمكنه بواسطتها الوصول إلى أحسن النتائج (ليلة ، ١٩٨١ : ٢٣٨ ـ ٢٤٩) .

وفي سيـاق النظـريـة السـوسيولوجية يتمثل الاتجاه النفعي Utilitarianism الذي عرف فيما بعد

بالموقف الجزئي أو الذري Atomistic ، وهو يعني بإدراك خصائص التفاعل في المجتمع من خلال إدراك خصائص الوحدات الفردية المكونة له ، وفيما يخص السلوك فإن التركيز يكون على وحدة السلوك وعدم الاهتمام بالعلاقات الجمعية ، وغايات الأهداف والأفعال الجمعية لمجموعة الأفراد . وبذلك أعطى الفرد القدرة على التحرك الفردي ، وبأن دوره هو المؤثر ، وكان لا بد أن يصاحب ذلك اعتبار هذا الفرد راشدا وعقلانيا في كل الخطوات التي يقوم بها . ويعني هذا بأن الاتجاه النفعي يرى في الإنسان الفرد أولوية على المجتمع ، والذي يتكون أساسا من هؤلاء الأفراد ، وبذلك تنتفي حتمية سيطرة المجتمع على الفرد كما هي الحال في الاتجاه الوظيفي (دوركايم ورادكليف ـ براون مثلا) (ليلة ، ١٩٨١ : ٢٥٦ ـ ٢٥٩) .

وقد زاد الاتجاه الفردي قوة وبعداً جديداً من خلال إسهام فيبر ، والذي أكد من جديد أسبقية الوجود الفردي على الوجود النسقي ، وأن بداية التحليل تكمن في الأفراد ، وما يعطونه من معاني ذاتية لأفعالهم . ومن خلال تفاعل هؤلاء الأفراد تتكون الأنساق ، والتي تصبح لها ديناميكيتها الخاصة ، والقدرة على قهر الأفراد ، ولكن هؤلاء بدورهم لا يفقدون القدرة على تغيير النسق كلية . وقد ربط فيبر بين ما هو ذاتي (الفاعل) ، وما هو موضوعي (الموقف والنسق) ، من خلال ، أن تحقيق الذاتي لا يمكن أن يتم إلا في إطار الموضوعي ، وأن الموضوعي لا يمكن فهمه بدون المعنى المتضمن فيه . ويمكن صياغة هذا بصورة اخرى بأن ظواهر الأفعال الاجتماعية لن يكتمل فهمها بدون ربطها بالدوافع الذاتية للأفراد المشاركين فيها . وفي واقع الامر يبدو أن بارث قد تأثر كثيراً بفيبر بدون أن يبدي ذلك في كتاباته مباشرة[٢٠] . وزاد من قوة الاتجاه الفردي ـ وإن كان على مستوى آخر ـ ما أسهم به باريتو من إرجاعه لمعظم بواعث الأفعال الاجتماعية إلى «رواسب» ترتكز على العاطفة ، وتتجلى في مشتقات تتمثل في الصور التي يمنطق بها الناس أفعالهم ، ويجعلونها تبدو في صورة عقلانية ، في حين أنها في الواقع غير كذلك . ومع أن باريتو في نهاية المطاف يرجع مظاهر السلوك إلى أسباب سايكولوجية وبيولوجية فردية ، إلا أنه يحاول أن يفسر بها السلوك الاجتماعي الظاهر في الأنساق الاجتماعية المختلفة[٢١] . ثم إن أهم ما يبرز في تحليل باريتو هو أن الأفراد (أو الجماعات : الصفوة) يسعون دائما لتحقيق مصالح ذاتية ، محاولين إضفاء العقلانية على أنماط سلوكهم . وما يجعله يختلف بعض الشيء عن بارث ، بالرغم من اتفاق الاثنين حول أن الفردية هي التي تشكل لبنة المجتمع ، هو أن بارث لا يعتبر أن الجوانب السايكولوجية والبيولوجية مكونة أساسية في تحليله (وإن كان ذلك يعتبر ضمنيا) ، كما أن التبادلية من جهة أخرى ، تفترض العقلانية كعنصر أساسي لتفسير السلوك ، في حين يعتبر باريتو اللاعقلانية هي الأساس .

والتبادلية بشكل عام تجد جذورها في الأوضاع الاجتماعية التي نتجت عن الثورة الصناعية ، والتي تبلورت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث أصبح «السوق» يبدو وكأنما هو المحرك لكل أنواع التفاعل الاجتماعي . ومن هنا فكر بعض المفكرين في أن هذا الأنموذج «اقتصاديات السوق» يمكن تعميمه حتى على السلوك اليومي للأفراد . فتماما ، كما يذهب كل فرد إلى السوق ومعه سلعة يتبادلها مع الآخرين ، وفي ذهنه أن يخرج بأكبر مكسب وأقل خسارة ، قد ينطبق هذا على أنواع سلوكه الآخر . وإذا كان هذا يمكن أن ينطبق على معظم أفراد المجتمع ، فإن قرارات الأفراد بهذا الشأن

تكـون في مجمـوعهـا النظـام الاجتماعي العام . والتبادلية بالرغم من ارتكازها على الظروف الاجتماعية والتـاريخيـة إلا أنهـا في وضعهـا النظـري تمثـل شكلا من أشكال الاتجاه الفردي في نظرية علم الاجتماع العام . وعليه لا يمكن لنا أن ننظر إلى التبادلية بمعزل عن جذورها الفلسفية من جهة ، وجذورها في علم الاجتماع نفسه ، وعلاقة ذلك بالظروف الاجتماعية والتاريخية .

يتضح مما سبق أن موقف بارث النظري لا يمكن تقييمه تقييما حقيقيا ، أو إدراكه تماما بمعزل عن الانتقادات التي وجهها للوظيفية : فالأنموذج الذي يقدمه ، في نظره ، بديل متقدم لها . فهو يتخطى كل النواقص التي تعاني منها تلك النظرية . كما أن موقف بارث الانتقادي العنيف تجاه الوظيفية قد نجد له ما يبر ره ، إذا علمنا السيطرة الفكرية التي كانت تبسطها تلك النظرية منذ الثلاثينيات ، وإلى مطلع الستينيـات من هذا القـرن على علم الانثـروبـولـوجيـا بدون أيـة منـافسـة تذكر . وبذلك كان بناؤها النظري ، وأئمتها ، ومؤسساتها ، قد بلغت شأوا بعيدا ، ومنعة وقوة ، مما لا يمكن معه الحلول محلها بسهـولـة ، وبـدون دك قواعدها وأسسها . يضاف إلى هذا ، أن الظروف الاجتماعية والتاريخية ، التي كانت تعيش وتزدهر فيها الوظيفية قد تغيرت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (مطلع الستينيات) ، حيث بدأت كثـير من الـدول التي كانت ترزح تحت نير الاستعـمار في نيـل استقـلالها . وبذا فقدت الوظيفية الكثير من مصداقيتها ، التي كانت تستمدها من الوضع الاستعماري . ليس هذا فحسب ، ولكن مما أثـر أيضـا على وضـع الـوظيفيـة وهيمنتهـا ، ظهـور نظـريات علمية (وخاصة في مجالي الاقتصاد وعلم الاجتماع) ، مثل نظرية اللعب Theory of Games ، ونظرية الاحتمالات Probability Theory.

وبـذلـك فإن كل هذه المصـادر قد شكلت موقف بارث النظـري ، وأهم ما يميز هذا الموقف عن الـوظيفيـة ، في نظـر بارث ، هو قدرتـه على تفسـير ظاهـرة التغـير الاجتـماعي على وجـه أفضـل من الوظيفية . فكل ما تستطيعه الوظيفية ، في اعتقاد بارث ، هو أنها تصف الموقف (أ) قبل أن يتحول إلى الموقف (ب) ، ثم بعد ذلك تصف الموقف (ب) بعد أن تم التحول كلية . في حين أن أنموذجه المولّد generative model لا يعنى بوصف المـوقفـين فقـط وإنما يهتم أكثر برصد العمليات والتحولات التي تحدث أثناء تحول (أ) إلى (ب) ، أي أن اهتمامه ينصب على الناحية الديناميكية في لحظات التغير من (أ) إلى (ب) ، في حين أن الوظيفية تعطى صورتين استاتيكيتين للموقفين (أ) و (ب) .

هذا وقـد تعـرض منهـج بارث للعـديـد من الانتقـادات وعلى كافـة المستـويـات ، سواء أكـان الامبـير يقي منهـا أم النظري . ففي الجانب الامبير يقي لم يسلم بارث حتى من المتعاطفين معه . ففي نقـاش مع الـبر وفيسـور روبرت بي Robert Bee ، وهو من أشد الأنثروبولوجيين الأمير يكيين حماسا لبارث ، ذكر لي بأنه يعتقد بأن توجه بارث النظري ، في رأيه ، يمكن أن يكون مفيداً للغاية ، إلا أن بحـوثـه الامبـير يقيـة لا ترقى إلى مستـواه النظـري ، إذ أنهـا لا تبرهن بصـورة واضحـة على صحـة افـتراضـاتـه ، أو بنـائـه النظري لأنها دائما فقيرة التفاصيل ، ومجموعة بطريقة سريعة . وفي الواقع أن معظم أبحاث بارث الميدانية ـ فيما عدا بحثه الرئيسي عن الباتان ـ لم تستغرق سوى أشهر قليلة جدا ، في أمـاكن يقف عامـل اللغـة حاجزا بينه وبين جمع المعلومات بصورة مباشرة . وقد يكون في المثال الذي

استخدمناه عن (الفور) خير دليل على ذلك ، إذ نجد فارقا كبيرا بين التصور النظري وترابطه ، وبين محاولة بارث الاستعانة بمعلوماته الامبيريقية لتوضيح وبرهنة ذلك التطور النظري .

ولكن حتى لو تركنا الضعف الامبيريقي جانبا فإن الانموذج النظري نفسه ، يمكن انتقاده من عدة أوجه ، وأول هذه الانتقادات يتعلق بفكرة أن «الممثل» يختار البدائل والاستراتيجيات التي ستحقق له أكبر قدر من الربح (العائد) وتبعد عنه شبح الخسارة . غير أن السؤال هنا هو : هل فعلا أن كل فرد يقوم بهذه العمليات بحسابات عقلانية واعية ؟ هذا ما يشك فيه كثير من الأنثروبولوجيين . ثم يأتي السؤال الثاني وهو عن الاستراتيجيات والبدائل : أيهما أصلح في نظر كل من «الفاعل» أم الباحث ؟ إذ لكل منهما وجهة نظر مختلفة ، لأن ما قد يعتبره الباحث بديلا مناسبا (من ناحية عقلانية) قد لا يكون كذلك بالنسبة للفاعل ، الذي يعيش في مجتمع وثقافة تختلف عن مجتمع وثقافة الباحث .

ومع أن بارث يضع في اعتباره دائما أن هناك كوابح اجتماعية يفرضها المجتمع على الفاعلين ، مما يحد من اختيارهم ، إلا أنه ، وكما أظهر طلال أسد (Asad, 1972) ، يغفل حقيقة أن هذه الكوابح قد لا تكون متساوية عند جميع الفاعلين ، لأن سلوك واختيار كل فاعل لبدائله ، واستراتيجياته ، وتقديراته ، تخضع إلى حد كبير ، ليس للكوابح الاجتماعية بصورة عامة فحسب ، وإنما تخضع أيضا إلى وضعيته الاجتماعية ، والطبقة التي ينتمي إليها ، فأنموذج بارث يعطي الانطباع بأن كل الفاعلين أحرار في اختيار أنماط سلوكهم وبدائلهم واستراتجياتهم (فيما عدا ما يفرض عليهم جميعا من قبل المجتمع) ، وهذه صورة غير حقيقية ، لأنه وكما أبان طلال أسد فإن وضع أسرة «الفاعل والامكانات المتاحة لها ، والنفوذ التي تتمتع به الخ . . ومنذ البداية ، تضع الفاعلين في خانات غير متساوية ، وعليه فإن نتائج سلوكهم وتصرفاتهم ستختلف اختلافا كبيرا ، ليس بسبب اختيارهم العقلاني للبدائل والاستراتيجيات ، وإنما للاختلاف المبدئي في ظروفهم الاجتماعية . فالذين يملكون ، مثلا ، مساحات شاسعة في الأراضي الزراعية ليسوا في نفس وضع من لا أراضي زراعية لهم على الإطلاق .

ومن ناحية ثانية هناك مشكلة أخرى ، ومتعلقة بالمشكلة الأولى ، وهي كيفية تحديد وقياس البدائل والإمكانات ، ومن ثم العائدات ، التي يختارها الممثلون ، هل تحددها على أساسها المادي أم الاجتماعي أم النفسي ؟ فما له قيمة مادية كبرى أو حتى قيمة اجتماعية ، قد يكون لا قيمة له على الإطلاق للممثل على المستوى النفسي . أو أن أحد الممثلين قد يعتبر العائد المعنوي أكبر قيمة بكثير من العائد المادي . كما أن حساب هذه الأشياء له صعوبة اخرى ، وهي حساب التكلفة مقارنة بالعائد : فكيف يمكن أن نحسب ما بذل من جهد فكري ونفسي في عمل ما ، مقارنة بالعائد المادي الذي حققه ؟ ومع أن بارث حاول تحويل الوقت والجهد العملي إلى أشياء ملموسة ، من واقع المجتمع المبحوث ، ومن خلال رسومه لتحويل القيمة (Value-Flow Charts) إلا أنه لم ينجح في رأينا في هذا المسعى لسببين : **أولهما** أن الحالة النفسية (والتي يعتمد عليها تحليله كثيرا) لا يمكن قياسها أو تحويلها إلى أشياء يمكن قياسها ، كما أوضحنا ، **وثانيا** أن هذه القيم نسبية . فإذا صرف (أ) مثلا نفس المبلغ الذي صرفه (ب) ، ولنقل مائة ريال ، على أمر ما ، فسيكون من الخطأ أن هذه المائة ريال متساوية عند (أ) وعند (ب) إذا كان الأول يملك مليون ريال والثاني ألف ريال فقط . إذ أنه من الظاهر أن المائة

ريـال أعلى قيمـة وتكلفتهـا أعلى بالنسبة لـ (ب) . ويمكن على ذلك أن نقيس «العائد» أيضا كشيء نسبي . وإذا وضعنـا عنصـر النسبيـة هذا في اعتبارنا ، جنبا إلى جنب مع الجوانب النفسية والمعنوية ، لوضح لنا تماما صعوبة قياس التكاليف والعائدات لأي سلوك إنساني .

ومن ناحيـة **ثالثـة** نجـد أن بارث يخلط نظـريا بين أمور ثلاثة : **السلوك الفردي** (كما فعل في مثال البـاتـان) ، **وصـور النشـاط** (السمسـار والمستثمر لا يعتبرهم بارث أفرادا وإنما صورة من صور النشاط الاجتمـاعي) ، **والجـماعـة الاجتماعية** (أسرة الفور) ، ويعاملها جميعا بنفس الأنموذج . ففي اعتقاده أن الفـرد في البـاتـان ، والنشـاط الاستثـماري المغـامـر ، والأسـرة عند الفور ، كلهم يتبع نفس الأسلوب العقـلاني في تحكيم العقـل ، لاختيـار أصلح الـوسـائـل وأنسبهـا ، لتحقيق أعلى المكاسب من خلال استخـدام اسـتراتيجية ملائمة . والخطأ هنا ، في نظرنا ، يكمن في أن الواقع الاجتماعي ليس مسطحا بهذه الصـورة ، فالأفـراد والنشـاطـات والجماعات الاجتماعية كل منها يحتل مستوى اجتماعياً يختلف عن الثاني ، ويحتاج إلى أسلوب في التحليل والمعالجة تناسب ذلك المستوى ، لأن عناصره وديناميكية حركته لا تشـابـه المستـويـات الأخـرى . فمستـوى الأفـراد يخضع للتحليل النفسي إلى حد كبير ، ومستوى النشـاط لتحليـل القطـاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ونقاط التقائها ، وتحول كل منها إلى الآخـر إلـخ . . أمـا مستـوى الأسـرة فيناسبه إلى حد كبير التحليل الاجتماعي البنائي كوحدة اجتماعية متكاملة ، لها كيانها وسلوكها ، الذي يختلف عن تصرفات وسلوك مجموع أفرادها . فالكل أشمل وأعم من الكل وليس مجرد حاصل مجموع أجزائه ـ كما أوضح ذلك ابن خلدون ودور كايم منذ وقت طويل .

ومن الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى أنموذج بارث التحليلي أنه لم يدخل في حسبانه العامل التـاريخي ، فالظـروف والعـوامـل التاريخية المختلفة لها تأثير كبير في تحديد شكل وطبيعة وعمق الكوابح الاجتمـاعيـة فالأخـيرة لا تخضـع لسلوك الأفـراد فقـط ، فللزمن فعله كذلك من خلال التفاعلات التي تنجم من تقـابـل وتعـارض عوامـل اجتـماعيـة ليست من خلق الأفراد مباشرة . وبنفس القدر يتجاهل أنمـوذج بارث أهميـة العـوامـل الخارجية وتأثيرها . فهذا الأنموذج ، على سبيل المثال ، لا يستطيع أن يحلل بطريقة مقنعة الوضع الاجتماعي لمجتمع يرزح تحت نير الاستعمار بشقيه القديم والحديث ، وهذا القصـور سببـه أن نمـوذج بارث يفـترض كما لو كان المجتمع الذي يدرسه مجتمعا قائما بذاته ، وتنحصر تفاعلاته الاجتماعية بما يجري داخله ، ولا تؤثر فيه أية علاقات خارجية[٢٢] .

الهوامش

(١) انظر ، The Social Organization of the Marri-Baluch, 1977 لاحظ أن بارث لم يؤلف هذا الكتاب وإنما جمع المـذكـرات الميـدانية عن المنطقة والتي جمعها الباحث Pahrson ، ثم قام بتكملتها بعد رحلة ميدانية للمنطقة ونظمها وأخرجها في هذا الكتاب وفاء لذكرى بيرسون ، والذي مات قبل إتمام بحثه .

(٢) في الواقع أن أحدث كتاب متخصص في الانثروبولوجيا باللغة العربية هو كتاب حسين فهيم «قصة الانثروبولوجيا» ـ عالم المعرفة ـ فبراير ١٩٨٦م ، وفيه جزء عن الانثروبولوجيا في العالم العربي ، والعالم الإسلامي ، ولم يشر مطلقا إلى بارث ، ولم يضمنه في قائمة المراجع .

(٣) وقد يسأل سائل ، ولماذا هذا الجانب فقط دون غيره ؟ وللإجابة على هذا السؤال شقان : الشق الأول هو أن إسهام

بارث النظري يعتبر أهم بكثير من دراساته الامبيريقية ، والشق الثاني هو أن بارث قد بنى موقفه النظري الكلي على ركام الوظيفية ، والتي يعود إليه جزء كبير من الفضل في هدم جانب كبير منها في مجال الانثروبولوجيا .

(٤) المعلومة المتعلقة بدراسة بارث في شيكاغو تفضل بها مشكورا بروفيسور عبد الغفار محمد أحمد ، وقد ذكر بأن بارث قدم رسالته في جامعة لندن للاقتصاد London School of Economics تحت اشراف ريموند فيرث Raymond Firth وقد ظهرت في شكل كتاب في موضوع الباتان Pathan المشار إليه أعلاه في الهامش رقم (٣) . وهذه المقولة تخالف ما ذكره كيوبر Kuper في كتابه عن الانثروبولوجيا والانثروبولوجيين في بريطانيا ، والمشار إليه أعلاه عن تتلمذ بارث على ليتش Leach (صفحات ١٧٦ ، ٢٠٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠) . وفي واقع الأمر يبدو في كتابات بارث تأثر واضح وإرشارات متعددة إلى فيرث ، بينما يكاد لا يظهر شيئا عن تأثره بليتش . ويجب أن نذكر هنا بأن ليتش في واقع الأمر هو تلميذ لفيرث .

(٥) أنظر في هذا الخصوص كتاب كيوبر وخاصة الفصل الأول الخاص بمالينوفسكي ، والفصل الثاني الخاص برادكليف ـ براون : الصفحات من ١٣ ـ ٨٨ لتوضيح ظلال الخلافات النظرية بينهما على الرغم من كونهما تيارين للمدرسة الوظيفية في معناها الشامل .

(٦) لأخذ فكرة عامة عن الظروف التاريخية التي نشأت فيها الانثروبولوجيا وأهم تياراتها في مراحلها الأولى أنظر على سبيل المثال كتاب حسين فهيم «قصة الانثروبولوجيا» وخاصة الفصل الرابع ، وكتاب Kuper (الصفحات من ١٤ ـ ٢٢) يوضح بعض هذه النقاط ، ويشرح كيف حلت الوظيفية محل الانتشارية والتطورية . وبخصوص تدهور الوظيفية وظهور مناهج منافسة ، والظروف الاجتماعية والتاريخية التي أدت إلى ذلك ، راجع كتاب طلال أسد :

. Asad, T. (ed) Anthropology and Colonial Encounter, London, Ithaca Press, 1973.

(٧) أنظر في ذلك حيدر إبراهيم علي : «التغير الاجتماعي والتنمية : مدخل نظري» دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ـ وقد أورد تساؤلات بوتومور (نقلا عن علياء شكري وآخرين) ص ٢٥ ، أما التصور الثاني للتساؤلات (عن محمد أحمد الزغبي) فقد أورده في نفس الكتاب ص ٢٦ . وللتعرف على نظرية التغير الاجتماعي بشكل عام أنظر في ذلك مقدمة مارتيندبل Martindale في كتاب :

Zouschan, Grand Hirsch, W. (ed) Explorations in Social change, London, Routledge & K. Paul, London, 1964.

(٨) لإظهار تعقيد العلاقة بين الفكر والواقع أنظر مقال :

Godlier, M. The Ideal Element in the Ideological, MS, 1977

ومن الكتب الكلاسيكية في هذا الخصوص كتاب ليتش

Leach, E. Political Systems of Highland Burma, Bell & Sons, London, 1954.

أما لتوضيح العلاقة بين البناء التحتي والفوقي

(Infr and Super Structures)

ارجع إلى :

Rymond Williams: Marxism and Literature, Oxford, Oxford Univ. Press, 1977.

وخاصة الصفحات ٧٥ ـ ٨٩ .

وفي تفسير ارتباط القيم الدينية بنشأة الرأسمالية ينبهنا علي ليلة من اعتبار البر وتستانتية هي الأصل الثيولجي للنظام الرأسمالي ولكن الفكرة هي «ومن ثم فإذا أكدت الماركسية على أهمية الاقتصاد ووسائل الانتاج كعناصر محورية في صياغة التفاعل الواقعي ، فإن ماكس فيبر في مقابل ذلك أكد على الدين والقيم كعناصر محورية ـ إذا تضافرت مع عناصر أخرى ـ فإنها سوف تلعب بلا شك دور المتغير المستغل في قيادة التفاعل الاجتماعي» أي بمعنى آخر ينبغي النظر في بناء الفكر كعامل مستقل عن الفعل ومؤثر فيه .

أنظر علي ليلة : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨١ م ص ٦١٨ ـ ٦١٩ .

(٩) لشرح جوانب هذه القضية بشيء من التفصيل والعمق ارجع إلى :

Silver man, D., Qualitative Methodology & Sociology, London, Gover, 1985.

الصفحات ٥٠ إلى ٨٢ .

كما أن فكرة ملز C.W. Mills عن الخيال السوسيولوجي Sociological Imagination تدور كلها حول مقدرة عالم الاجتماع على الربط بين الجزء والكل .

(١٠) و(١١) هذه الأجزاء مأخوذة من كتاب رادكليف ـ براون من الصفحات المذكورة :

Radcliffe - Brown, A. Structure and Function in primitive Society, London, Chen and West, 1952.

الصفحات ٩ ـ ١٠ و ١٨٧ . ولمزيد من التفاصيل حول المنهج الوظيفي ومفاهيمه الأساسية «كالنسق» و «النظام» و «الشخص» و «الوظيفة» أنظر : قباري محمد إسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ب ت ـ وخاصة الفصل الرابع من الباب الثالث ص ٢٥٩ ـ ٢٨٨ .

وأنظر كذلك مقدمة أحمد أبوزيد في كتاب «البناء الاجتماعي» لايفانز برتشارد وترجمة أحمد أبوزيد ، الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ١٩٦٧ م .

(١٢) هذا الجزء مأخوذ في معظمه من كتابات بارث التالية :

(I) Models of Social Organization

(II) On the Study of Social Change, American Anthropologist Vol. 69 (6), 1967.

(III) The Role of the Enterpreneur in Social Change in Northern Norway, Bergan, Scandinavian Univ., 1963.

(١٣) أنظر في هذا المثال إيضاح وشرح أحد تلامذة بارث ، قونار هولاند ، والذي اعتمد بارث في تحليله لهذا الموقف على المعلومات التي جمعها تلميذه قونار

Healand, G. Nomadism ad an Economic Career among the Sedentaries of the Sudan Savannah Belt, in Essays in Sudan Ethnography - (ed) Cunnison, I & James, W., 1973.

(١٤) أن نموذج بارث السابق ذكره ، وهو جزء من اتجاه عام في العلوم الاجتماعية قد أثر على عدد كبير من الانثروبولوجيين المعاصرين والذين من أبرزهم تلاميذه من النرويجيين خاصة والاسكندنافيين عامة ، كما تأثر به أيضا عدد من الانثروبولوجيين السودانيين وخاصة البر وفيسور عبد الغفار محمد أحمد (وذلك في فترة تكوينه الأولى ، ولكن وحتى في تلك المرحلة لم يتبع أنموذج بارث كلية ، وإنما في خطوطه العريضة ، ويختلف معه في النتائج) . أما في بقية أرجاء العالم العربي ، وعلى الرغم من كتابات بارث الموسعة عنه وعن العالم الإسلامي ، لم يتأثر به أي من الانثروبولوجيين المعاصرين ، والذين لا يزالون يحصرون أنفسهم في الغالب الأعم في المنهج الوظيفي بمختلف اتجاهاته .

(١٥) لمعرفة بعض تفاصيل قيام واهتمامات وأهم شخصيات هذه المدرسة أنظر : كيوبر صفحات ١٨٣ ـ ١٩٠ .

(١٦) و(١٧) نقلا عن بارسونز في كتاب محمد عبد المعبود مرسي : علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز ، مكتبة العليقي ، القصيم ، ١٤٠٤ هـ ، ص ١٠٣ .

(١٨) أنظر بخصوص شرح وعرض أفكار بارسونز كتاب جي روشيه (ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد) : علم الاجتماع الأمريكي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ ، وخاصة الصفحات ٦٧ ـ ٩٤ ، والصفحات ٩٧ ـ ١١٧ .

(١٩) انظر محمد عبد المعبود مرسي ، علم الاجتماع عند تالكوت ، الصفحات ٧٥ ـ ٧٧ ، وما أوردناه في هذا المجال هو مجرد أمثلة عابرة توضح أن بارث قد تجاهل إسهامات مهمة حاولت التعديل في مسار الوظيفية ، ولم نشأ أن ندخل في تفاصيل ذلك ، ولا إيراد أسماء أخرى كان لها وزنها في هذا الخصوص كميرتون Merton وكنجزلي ديفيز Kingsley Davis وغيرهم .

(٢٠) أود أن أشكر د . عبد الغفار محمد أحمد لإشاراته لي بأن بارث قد ذكر له في أحاديثه معه بأنه قد قرأ فيبر وتأثر كثيرا بكتاباته .

(٢١) لمزيد من التفاصيل حول أفكار باريتو انظر علي ليلة (النظرية الاجتماعية المعاصرة) ص ٧٣٥ ـ ٧٦٤ .

(٢٢) يود المؤلف أن يشكر بروفيسور عبد الغفار محمد أحمد لقراءته لهذا البحث وإبداء ملاحظاته حوله ، كما أشكره أيضا على المعلومات الثرية التي أمدني بها عن بعض جوانب حياة بارث واهتماماته ، وبروفيسور عبد الغفار تتلمذ على بارث وكان الأخير مشرفه على رسالته للدكتوراه وصديق له في ذات الوقت وما يزال . وأود كذلك أن أشكر الدكتور

الحاج بلال لتفضله بقراءة البحث كذلك وإبداء ملاحظات قيمة حوله ، كما أود أن أشكر الزملاء الأساتذة بقسم الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك سعود على تعليقاتهم وملاحظاتهم التي أبدوها بعد قراءة هذا البحث في صورته الأولى عليهم في نطاق ندوات النقاش العلمية التي يقدمها القسم .

المراجع العربية

اسماعيل ، قباري محمد — **الانثروبولوجيا العامة** ، الاسكندرية : منشأة المعارف ، بدون تاريخ .

برتشارد ، ايفانز — **البناء الاجتماعي** ، ترجمة أحمد أبوزيد ، الاسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٦٧ م .

روشيه ، جي — **علم الاجتماع الأمريكي** ، ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١ م .

علي ، حيدر إبراهيم — **التغيير الاجتماعي والتنمية : مدخل نظري** ، القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ م .

فهيم ، حسين — **قصة الانثروبولوجيا** ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٦ م .

ليلة ، علـي — **النظرية الاجتماعية المعاصرة** ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١ م .

مرسي ، محمد عبد المعبود — **علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز** ، القصيم : مكتبة العليقي ، ١٤٠٤ هـ .

المراجع الاجنبية

Asad, T. — **Anthropology and Colonial Encounter,** London: Ithaca Press, 1973.
Market Model, Class Structure and Consent, Man Vol. 7 No.1., 1972.

Barth, F. — — Anthropological Models and Social Reality, 1966.
— **Sohar: Culture and Society in an Omani Town,** Baltimore: The John HopkinsUniversity Press, 1983.
— **Ethnic Groups and Boundaries,** Boston: Little Brown and Co., 1969.
— **Models of Social Organization, The Royal Anthropological Institute,** London: Occasional Paper, 23 1966. (1-3).
— **Political Leadership among the Swat Pathan,** London: London School of Economics, 1968.
— **Principles of Social Organization in southern Kurdistan,** Oslo: University of Oslo, 1973.
— **The Role of the Enterpreneur in Social Change in Northern Norway,** Bergan: Scandinavian University "On the study of Social Change", **American Anthropologist** Vol. 69 (6), 1967.

Bee, R. — **Patterns and Processes,** New York: The Free Press, 1974.

Firth, R. — **The Sceptical Anthropologist, The Proceedings of the British Academy,** Vol. LVIII London: Oxford University Press, 1972.

Godlier, M. — **The Ideal Element in the Ideological,** MS, 1977

Haaland, G. — "Nomadism as an Economic Career among the Sedentaries of the sudan Savannah Belt, "in **Essays in sudan Ethnography.** (ed.) Cunnison, I. and James, W., 1973.

Leach, E. — **Political systems of Highland Burma,** London: Bell and Sons, 1954.

Kuper, A. — **Anthropologists and anthropology,** London: The Penguin Books, 2nd ed., 1975.

Radcliffe-Brown, A. — **Structure and Function in Primitive Society,** london: Chen and West, 1952.

Rymond Williams — **Marxism and Literature,** Oxford: Oxford Univ. Press, 1977.

Silverman, D. — **Qualitative Methodology and Sociology,** London: Gover, 1985.

Zouschan, Grand Hirsch, W. (ed.) — **Explorations in Social Change**, London: Routledge. and K.Paul, London, 1964.